

في التصوير الإسلامي

## ليلى والمجنون

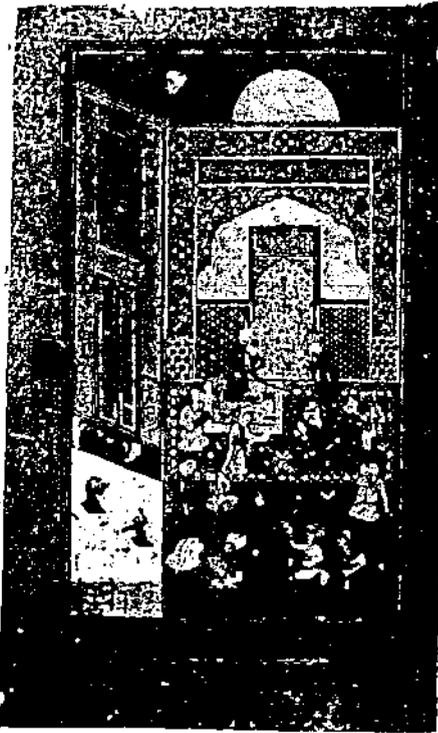
للدكتور محمد مصطفى

- ٢ -

يُجتمعان كل يوم في المدرسة ليدرس كل منهما ما يتجلى في نظرات صاحبه وقسماته من الحب والهديام . وحاولا أن يخفيا حبهما عن أصحابهما ... ولكن عبثاً ... فإن الحب يشبه الطيب أو المسك إذا وجد في بيت لا يمكن إخفاء رائحته . ففى ذات يوم أرادت ليلى أن تعلم مالها في قلب قيس ، فأعرضت عنه ، وأقبلت بحديثها على غيره ، فلما رأى ذلك جزع جزعاً شديداً حتى خافت عليه فقالت له (١) :

كلانا مظهر للناس بفضاً وكل عند صاحبه مكين  
تبلغنا العيون بما أردنا وفي القلبين ثم هوى دفين  
فلما سمع قولها سرى عنه وعلم ما له في قلبها ، وانصرف عنها وهو من أشد الناس سروراً وأقرهم عيناً ، وقال :

أظن هواها تاركى بمضلة من الأرض لا مال لدى ولا أهل  
ولا أحد أفضى إليه وصبى ولا صاحب إلا المظيئة والرحل  
محا حبا حب الألى كن قبلها وحلت مكاناً لم يكن حل من قبل



(شكل ١)

ولما سمع جلساؤها ذلك فطنوا إلى أمرها ، وشاعت قصة

جاء قيس محققاً ما تمنأه والداه ، لا يعرف قلبه سوى أخلص الحب ... يمشق الجليل ويحب الجمال ... فكان وهو في مهده يتطلع إلى الفتيات الجميلات اللذجات ، ويرنو إليهن في شغف ونهم ، كأن في منظرهن ما يجلب السرور إلى قلبه ، أو ما هو غذاء لنفسه الصغيرة ، يسيح في طلبهن إذا ابتعدن عنه ، ويبكى في توجع وتوسل ليقرب منهن إذا لم يستطع رؤيتهن . ثم صار يجالسهن ويمحادثهن ويستنشدن الشعر ، حتى حفظ منه الكثير ، فاكسب حديثه طلاوة ولباقة ، وأسلوبه أناقة وطرافة ، وأخذ على صغر سنه يقرض شعر النزل وينشده ، وينازل به الفتيات ويشبب بهن ، وكأنه جاء من عالم آخر لا يعرفه بنو عاصم ، ولا عهد لهم به ، فالحب والنزل في رأيهم « إنما يكون في الجمانية الضعاف قلوبها ، السخيفة عقولها ، الصملة رءوسها » .

ولما كبر الصبي وقات سن الطفولة ، أرسله أبوه إلى المدرسة مع أقرانه الصغار من الفتيات والفتيان . وبين الفتيات كانت فتاة تسمى (ليلى) ، كان أبوها شيخاً لبطن أخرى من بطون بني عاصم ، ووقعت ليلى موقفاً حسناً من قلب قيس قال إليها وأحبها وقال في وصفها (١) :

بيضاء خالصة البياض كأنها قررتوسط جُنجح ليلٍ مُبرِدٍ  
موسومة بالحسن ذات حواسدٍ إنَّ الجمالَ مظنةٌ للحسدِ  
وترى مدامها ترقرق مقلّة سوداء ترغّب عن سواد الإعيدي  
خودٌ إذا كثرت الكلام نعوذت بحمى الحياء وإن تكلمت تقصد

ووقع لقيس في قلب ليلى مثل ما وقع لها في قلبه ، فكانا

(١) الديوان من ٣ ، والأغاني من ٤٦ ، وترين الأسواق من ٤٤

(١) الأغاني من ٨٢ ، وترين الأسواق من ٦١

- ٣ -

بعد أن حجبت ليلى في منزل أبيها ، حزن قيس وضاعت الدنيا في عينيه ، ولما لم يجد في المدرسة ما يرفه عن نفسه الحزينة ويسرى عنه ، هجرها وهام على وجهه يبحث عن حبيبته في منزل والديها . ولما أعياه ذلك عمد إلى الحيلة فتزيا بزى درويش مجوز أعمى قد أتاخ عليه الدهر بكلا كله ، وسار يتلصص طريقه بمكاز في يده حتى وصل إلى بيت ليلى ، فألقى بنفسه على عتبة متصنماً الإعياء . وخرج أهل الدار لساعدة هذا البرويش البائس الذي أنهكه السير الطويل وشقة الطريق ، وكانت بينهم ليلى فعرفته وأمسكت يده وشدت عليها لتعلمه أنها ما زالت على عهددها ، ولكي تجدد ما قطمته على نفسها من ميثاق الإخلاص له في الحب . ولاحظ والدها ذلك وتعرف على قيس ، فنهز ابنته وطرده قيساً ، فزاد ذلك من شدة حزنه وبأسه . وعاتبه أصحابه ورموه بالجنون لما رأوه في مسلكه من شذوذ ، فقال لهم (١) :

وإني لجنونٌ بليلى مُوَكَّلٌ

ولستُ تُخزَّوفاً عن هواها ولا جَدَلداً

إذا ذُكرت ليلى بكيتُ سباباً لتذكارها حتى يبيل البكا الخدداً

رسماء أصحابه « الجنون » وصار يعرف بين قومه بهذا الإسم .

واشدد به الحزن واليأس فاعترض على قضاء الله بقوله (٢) :

خليلى لا والله لا أملك الذى قضى الله فى ليلى ولا ما قضى ليا

قضاها لتبرى وابتلانى بحسبها فهلاً بشيء غير ليلى ابتلانيا

فسلب عقله ، وهجر أهله وذويه ، وانفرد في جنبات الحى

عاريكاً ، لا يلبس ثوباً إلا خرقة ، يخطط بأصبعه في التراب ،

ويجمع العظام حوله ، ولا يجيب أحداً سألته عن شيء إلا إذا

ذكروا له ليلى ، فيرجع إليه عقله ويخاطبونه فيجيبهم جواباً

صحيحاً . ولما بئس من لقاء ليلى يارح الحى ولجأ إلى البرية وهو

يقول (٣) :

غرامهما بين الناس حتى بلغت مسامع والد ليلى عرفاً بعدها عن المدرسة وحجبها عن قيس ، ومنعه من رؤيتها والتحدث إليها ، وتوعده بالشر إذا اقترب منها ، فقال قيس في ذلك (١) :

ألا حجبت ليلى وآلى أميرها علىَّ عينا جاهداً لا أزورها  
وأوعدنى فيها رجالٌ أبوهم أبى وأبوا خُشنت لي صدورها  
على غير جُرم غير أبى أحبها وأن فؤادى رهنها وأسبرها  
وفى (شكل ١) منظر داخلى للمدرسة بين قبة يجلس تحتها

المعلم بلحيته البيضاء الطويلة ، وعلى رأسه عمامة كبيرة ، وفى

يده عصا لتأديب « أشقياء » للتلاميذ ، وأمامه تلميذ يتلو عليه

ما حفظه من الدروس . ونرى قيساً جالساً إلى اليمين فى معزل

عن زملائه ، يسند رأسه على ذراعه غارقاً فى تأملاته كأنه يفكر

فى حبيبته ليلى التى تجلس إلى اليسار بجانب صديقة لها تواسيها

وتعطف عليها . ويقرأ أو يكتب بمضى التلاميذ الآخرين فى كتبهم

ويتجادل آخرون . وإلى اليسار يتقاذف « شقيان » بأدواتهما

الدرسية ، غير عابئين باحتمال إصابة « زير الماء » الموضوع

فى الركن الأيسر على كرسي حامل له ، وما قد تجلبه هذه الإصابة

على جسديهما من آثار عصا المعلم . ولم ينس المصور أن يخفف

من حدوة « عصا » المعلم بيدي شعر كتبه على مدخل القبة

يناشده فيه ألا يعلم الفتاة الشفراء ذات الوجه الجميل سوى كل

شئ ، حسن هى جديرة به . وهذه الصورة (٢) فى مخطوط من

المنظومات الخمس للشاعر نظامى الكنجوى كتبه المخطاط سلطان

محمد نور ، ومؤرخ سنة ٩٣١ هجرية (١٥٢٥ م) ، وقد اختلف

مؤرخو الفن الإسلامى فى نسبة الصور التوضيحية التى به (٣) ،

ولسكننا نرجح ما يقوله الأستاذ كينل (٤) فى نسبتها إلى المصور

شيخ زاده تلميذ المصور الكبير بهزاد الذى هاجر معه إلى مدينة

تبريز . وهذا المخطوط محفوظ فى متحف المتروبوليتان للفنون

الجميلة بنيويورك

(١) الديوان من ٤ ، والأغاني من ٦٨

(٢) منقولة عن : Dimand, Pl 1

(٣) أنظر : ركن عمده حسن ، التصوير فى الإسلام من ٦٠

(٤) فى : S. P. A. , II, p. 1872, 1873, n. 2.

(١) الأغاني من ٣٧

(٢) الديوان من ٦٨ . الأغاني من ٥٤ ، تبيين الأسواق من ٥٨

(٣) الديوان من ٢٤

ولما رأته أمه بكت لجائته البائسة التمسة ، وحاولت جبهدها  
أن تروح عن نفسه ، فألبسته ملابس جميلة ، وأصلحت من  
شكله وهندامه ، وجعلت تواسيه وتشمه بعطفها ورعايتها عساها  
تجلب إلى قلبه الغراء والسولة .



(شكل ٢)

وفي (شكل ٢) ينام المجنون إلى جانب مجرى ماء ، ويسهر  
على حراسته الوحوش من كل جانب ، فيربض الأسد والفهد  
إلى اليمين ، والثعلب والظباء والوعول إلى اليسار . وجاء ذوهه  
وضربوا خيامهم بالقرب منه ، وقد خرج الرجال وانتشروا  
في المسكان ، بينما يرى والده بلحيته البيضاء قادماً نحوه . وقد  
أجاد المصور تصوير الحياة المنزلية للنساء البدو في بيوتهن ،  
فرسم إحداهن وهي تحلب بقرة ، وأخرى تغزل على مغزل  
أحضرته معها وهي تستمع في عملها بيديها وقدميها ، واثنين  
جالستين في مدخل إحدى الخيام وقد احتدم بينهما الجدل .  
وهذه الصورة<sup>(٢)</sup> من تصوير المصور الإيراني قاسم علي أحد تلامذة  
المصور الشهير بهزاد ، وهي في مخطوط المنظومات الخمس للشاعر  
نظامي الكنجوي كتب في سنة ٩٠٠ هجرية (١٤٩٤ م) باسم  
أحد أسماء السلطان حسين ميرزا . وهذا المخطوط محفوظ في  
المتحف البريطاني .

تمر مصطفى

(ينبع)

مساعدة في دار الآثار العربية

فمن أجلها ضاقت على برحبها بلادى إذالم أرض من أجاره  
ومن أجلها أحيت من لا يحيى

وباغضت من قد كنت حيناً أعاشره

وكان المجنون وليلى وما صبيان يذهبان إلى جبل قريب

يقال له « التوباد » فذهب إلى هنالك وجلس على ربوة منه فأنته  
ذكريات الصبا فقال<sup>(١)</sup> :

هذه الربوة كانت ملعباً لشبايتنا وكانت مرثماً  
كم بنينا من حصاها أربماً واثنين فحونا الأربماً  
وخططنا في نفا الرمل فلم نحفظ الريح ولا الرمل وعي  
لم نزل ليلى بعينى طفلة لم تزد عن أمس إلا أصبا  
(شوق)

وخرج الملوح بن مزاحم ومعه بعض أولاده وذويه يبحث

عن ابنه قيس ، فوجده هائماً على وجهه في جبل التوباد ، وكان  
في حالة يرثى لها ، غارياً ، نحيل الجسم ، طويل الأظافر ، يخط

بأصبعه في الرمل وهو تائه الفسك ، وقد طال شعر جسده وتوحش  
وألفته الظباء والوحوش فكانت تجالسه وتلازمه ، فلما اقترب

ذوهه منه لم يعرفهم ونفر منهم ، فناداه أبوه : قيس ، أنا أبوك  
الملوح وهذا أخوك ، فظب نفساً وابشر فقد وعدني أبو ليلي

أن يزوجهما . فأقبل إليهم وأنس بهم ، فقال له أبوه : يا قيس ،  
أما تتق الله وتراقبه ؟ كم تطيع هواك وتعصيني ، فقد كنت

أرجى ولدى ، أفضلك عليهم وأوثرك ، فأخلفت ظني ولم تحقق  
أملي ، فليت شمري ما هي أراها من يوصف بالجمال والحسن ،

وقد بلغتني أنها فوهاء قصيرة جاحظة العينين شهلة سمجة ، فمدت  
عن ذكرها ولك في قومك من هو خير لك منها . فلما سمع قلبه

فيها أنشأ يقول<sup>(٢)</sup> :

يقول لي الواشون ليلي قصيرة فليت ذراعاً عرض ليلي وطولها  
وأنت بعينها لعمرك شهلة - فقلت كرام الطير شهل عيونها

وجاحظة فوهاء لا بأس أنها منى كبدى بل كل نفسى وسولها  
فدق صلاب الصخر رأسك سرمداً

فأني إلى حين المات خليلها

فاضطر أبوه أن يعده بالسبي لدى والد ليلي كي يزوجه إياها ،

واستطاعوا بذلك أن يأخذوه معهم ويردوه إلى الحي وأهل بيته .

(١) مجنون ليلي لشوقي ص ١١٤

(٢) الديوان ص ٢٦

(١) منقولة عن : Sakisian, Pl. LII, fig. 91 أنظر أيضاً :

S. P. A, III, p. 1866